

الفصل الثاني

(١١) أمين الريحاني في عصره

٦ - حياته

إن العصر الذي عاش فيه أمين الريحاني كان بدء تفتّح على العلم ، فقد ذرّ قرنه في منتصف القرن التاسع عشر ، ولمّا يزل متّصل الحلقات آخذاً بالانفتاح والانطلاق إلى يومنا هذا .

ولا يذكر اسم أمين فارس الريحاني حتى تراءى أمام الأعيان مؤلفات رجل مفكر نبئت أفكاره في لبنان ونمت في « الولايات المتّحدة » .

وُلِدَ في قرية « الفريكة » من قضاء المتن في لبنان ، السنة ١٨٧٦ وتعلّم مبادئ اللغة العربية والفرنسية في مدرسة مواطنه الصّحفي المعروف « نعوم مكرزل » وفي الثانية عشرة من سنّه رحل إلى « نيويورك » صحبة عمه « عبده » ، فدرس مبادئ اللغة الإنكليزية . ثمّ اشتغل بالتجارة مدّة يسيرة ، وفي هذه الأثناء كان يطالع تأليف كبار شعراء إنكلترا ، فشغف بكتب شكسبير ورواياته ، وعلى أثر هذه المطالعات تولّد فيه ميل إلى فنّ التمثيل ، فأنخرط في سلك شركة تمثيلية أميركية ، وجال معها ثلاثة أشهر ، ثمّ ترك هذا الفنّ لأسباب مجهولة لم يتحدّث عنها ولم يذكرها أحد . ودخل كليّة « نيويورك » الفقهيّة ، فكثّب فيها سنة ولم يبرحها إلاّ لأسباب صحيّة ، وانقطع إلى الدرس على نفسه والكتابة والخطابة ، ورجع إلى مسقط رأسه « الفريكة » السنة ١٨٩٨ ، وفي سكيّة القرية وهدوئها انصرف إلى مطالعة « لزوم ما لا يلزم » للمفكر العربي الكبير أبي العلاء المعريّ ، فأعجب به ومال إلى ترجمته للغة الإنكليزية ، وطبعها له شركة أميركيّة اسمها Double day and Co. New-york وبه كان بدء شهرته ، وعاد إلى الولايات المتّحدة

(١) بالاعتماد على الهلال ج ٦ السنة ٣٠ ص ٥٦٢ . و « أمين الريحاني » جمعه وبوبه أخوه الأديب ألبرت ، وعجالة وضعها جارت الراوي عن الريحاني .

وبقى فيها إلى السنة ١٩٠٤ ، وقفل راجعاً إلى وطنه لبنان ، يكتب وينشر في المجلات والجرائد العربية والإنكليزية ، ويخطب في الأندية الأدبية والمدارس .

أمّا وقد عرفنا مولده ومنشأه وما حصله من الدرس ، فعلينا أن نتعرّف إلى صورته الجسمانية .

٢ - صورته الجسمانية

أمين الريحاني كما عرفته ، وكما وصفه أخوه الأديب « ألبرت » قال : « رأس كبير وشعر أسود علاه غبار الزمان فايضٌ بعضه وبقي البعض الآخر على سواده ، تنبسط تحته جبهة كتبت الأيام فيه ما ازدحم من الأفكار ، وحاجبان مقوّسان تحتهما عينان واسعتان حادّتان يشعّ منهما نور الحبّ والإخلاص لوطنه لبنان وللبلاد العربية قاطبة ، وأنف طويل معكوف في وجه أسمر البشرة ، ما هو بالمستدير ولا بالطويل ، فيه شبان قصيران وفم دائم الابتسامة ، من تحته ذقن مستدير ، يحمل هذا الرأس جسم ربع القامة ، لا بالهزيل ولا الممتلئ ، ويده اليسرى فيها شيء من الاسترخاء من أثر عارض عصبيّ ثقله بين الفينة والفينة » .

حديثه عذب لذيذ ، يتهادى مع الهواء بهدوء واطمئنان ، يجرس حلو تستسيغه الأذنان ، وتفترّ له المباسم ، حاضر النكتة ، ظريف المعشر ، واسع الاطلاع ، له في كلّ فنّ من فنون الأدب والعلم باع لا بالطويل ولا بالقصير ، ولكنّه كافٍ وافٍ ، و « خير الأمور الوسط » .

٣ - تأثيره

إنّ ما كتب ونشر سواء في العربية أو الإنكليزية ، كان له الأثر الطيب في قلوب قرّائه ، كيف لا يكون هذا ، وهدفه الإصلاح وزرع بزور الوطنية في القلوب . وقد عرفنا شيئاً مما كتب وعرضنا إليه ، فقد كان يبغض الكذب والتمويه

والتدجيل في الأدب والسياسة والاجتماع والدين ، ولست أعدو الحقيقة إن أنا قلت : إنه كان رسول الشرق إلى الغرب ورسول الغرب إلى الشرق ، يحمل في صدره القوة المعنوية من حرية وصراحة غير مراوغ ، ولا خداع ، يقول ما يعرف ، ويعتقد أنه حق وعدل ، لا يرهبه سيف ولا يخيفه سجن ، ولا يقض مضجعه نفي أو تشريد .

اجتمع بالملوك والأمراء والوزراء والحكام . فقال ما يعتقد ونصح بما رآه صواباً . وكانت أقصى أمانيه أن يجتمع زعماء العرب وملوكهم وشيوخهم وأمراؤهم على الحب والتصافي ، نابذين الأحقاد والضغائن والكبرياء عاملين يداً واحدة على رفع لواء العرب وإحياء التراث الأدبي القديم بإيمان وعقيدة وإخلاص ، آخذين بأسباب الحضارة وترقية الأمة . وإليك ما جاء في كتابه « ملوك العرب » قال : « إن العوامل الطبيعية توجد في شكل أقسام من الأرض وتقطيعها ، وفي من يسكنها ما يسمى وحدة جغرافية تشابه فيها الأجناس والطباع والعادات والتقاليد ، وتشارك فيها مصالح الأهالي وسياسات المتعلمين فيهم . غير أن هذه الوحدة لا تدوم إلاً بثلاث : حكومة منظمة عادلة ، ومدارس وطنية عامة ، وطرق مواصلات حديثة أى البرق والبخار » . إلى أن يقول أخيراً : « لا أمل للعرب في تحقيق الوحدة العربية الكلية اليوم^(١) . فهل من الممكن أن يتفاهم ملوكها ويتألفوا ؟ أجب نعم . وأقول فوق ذلك إنه من الممكن أن يؤلفوا وحدتين أوليتين تقسمان شبه الجزيرة شطرين في الحكم كما قسمتها الطبيعة ، أى الشطر الغربي والشرقي^(٢) » .

وسرى في المنتخبات ما يوضح لنا ذلك جلياً .

(١) أى سنة ١٩٢٢ .

(٢) « ملوك العرب » ج ٢ الطبعة الثالثة بيروت ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

٤- أخلاقه

إنَّ من يطلِّع على مؤلفات « الأمين » ويسر غور أقواله يرى أنه طبع ونشأ على حبِّ الصدق واللطف والإيناس ، ولا ريب أن مردَّ ذلك للتربية البيئية والبيئة التي نشأ فيها .

لقد كان يحبُّ الناس ، ويحفظ الصديق ، ويبالغ في إكرام الضيوف ، وسائله مجاب ، غير طمَّاع ولا سكتير ولا محبِّ للمال . وأعزَّ شيء عنده كان الكتاب والقلم ، وأحسن أيامه ، أيام عزله وانقطاعه إلى التفكير والتأمُّل ، يستوحى الطبيعة في وادى « الفريكة » المشرف على نهر الكلب يعالج أمراض الشرق الذي رسف بقيود الظلم والاستبداد حيناً من الدهر ، لا يعرف غير الجهل والعصبية الذميمة والسبات الدائم على فراش الغفلة والانتقاد إلى القوى الظالم . وأبناؤه تكفيهم كسرة خبز وشربة ماء وقميص بالية ، وقناعة وزهد ، في هذه الحياة إلى أن تطوى الورقة وينضمون إلى أممهم الأرض ، هذه كانت حياة الشريين ، وقد آلت الريحاني فجرَّد قلمه ، وكان أشدَّ من المدفع يحارب الجهل والجهن والتعصُّب وينشر بزور المحبة والمعرفة ، ويفتح العيون على الحياة المثلى . وكل ما كان يرى إليه تحرير الشرق جملة ونشر العلم والثقافة في ربوعه وقوله : « مزايا الشرق أن ينبت أشخاصاً منحوا شيئاً من الألوهية ، ومنوا بالحمول والكسل »^(١) وهذا ما يثبت لنا حبه وإخلاصه في إنهاض همم الشريين جملة .

(١) « بزور للزراعين » جمعها ألبرت ريحاني ص ٧٨ .

٥ - أقوال عامة (١)

كان كلما ظهر أثر لأمين الريحاني ، تنادت به الجرائد والمجلات العربية والإنكليزية .

من تلك الصحف مجلة « آسيا » قالت ما تعريبه : « إن كثيرين من الأوربيين - سياسيين وجنوداً وعلماء - زاروا بلاد العرب . فهناك مثلاً « بركهارت » و « بورتون » و « دوتق » الذين طافوا أنحاء بلاد العرب الوسطى والغربية و « فليبي » الذي اجتاز الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر ، ولكن قلَّ بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المساعدة على التعرف الصحيح حتى المعرفة في بلاد العرب وملوكها كأمين الريحاني .

إنَّ العربية لغته وهو يتقنها كما يتقن الإنكليزية ويكتب ببلاغة في اللغتين ، وقد تنقَّل في جميع أنحاء الجزيرة ؛ وغايته إيجاد حلف عربي ، يجمع ملك الحجاز وإمام اليمن والسيّد الإدريسي ، وسلطان نجد في هذا الاتفاق ، فيوجد إمبراطورية عربية تعمل في سبيل السلام والتمدن .

وكتب نادى « الثريا » في الولايات المتحدة وهو نادٍ يضم كبار أدباء أميركا في الولايات المتحدة : « إن أمين الريحاني هو أفصح خطيب دخل دائرتنا » .

ودبَّج « فاركاس لافيلا » الكاتب الشهير الذي يعدّ عند الإسبان بمنزلة « مكسيم غوركي الروسي » فصولاً تحت عنوان « أطواق الذهب » تحدّث فيها عن طائفة من جيايرة الفكر في هذا العصر فقال عن الريحاني ما يلي :

« بماذا تراني أحدثك عن أمين الريحاني الشاعر الحقيقي الساحر ، يخلبني بعمق فكرته ورحابة آفاق تأملاته ، وخياله . فقد تجنَّح فكره واختمر خياله الخصب النامي حتى أصبح شاعراً وحتى تحوّل إلى خمرة معتقّة إذا سكبت في الأقداح لاتعافها الأفواه .

(١) بالاعتدال على مجلة « اقرأ » في دراسة مارون عبود للريحاني ، دار المعارف مصر ص ١٧ .

لقد نشأ هذا الشاعر في بوادي الشرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وفي ظلّ ظلال الجوامع العالية في وسط هذه التأثيرات الصامتة ملأ جرّة أحلامه وتصويراته وخیالاته ، وعندما نما فكره ، وارتفعت شجرة أحلامه ، أفرغها شعراً عميقاً وطروباً في أفواه الآلهة .

وقال الأستاذ « كراتشكوفسكى المستشرق الروسى » في كتاب أرسله إلى صديق له :

« إنك تسمع غالباً في كتابات الريحاني المبتكرة أصواتاً حربية جريئة بعيدة الصدى ، فهو ينشد الثورة ويدعو الناس إلى التآخي ، ومع ذلك فالقوة في نبوغه ليست في هذه الناحية من أدبه .
وجاء في كتاب المغرب الأقصى^(١) .

قال المقيم العام الإسباني في حفلة معهد الدروس المغربية بتطوان :
« نحتفل اليوم في هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية ، الأستاذ أمين الريحاني الذي شرفنا بقبول تسميته مديراً شرفياً لمعهد الدروس المغربية . قد كان من أعزّ رغائبنا أن يتعرّف إلى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعين رأسه عمل فرنكو .

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها في العالم العربي . . . إننا نترك الأمر لحكم التاريخ والآن لشهادة أمين الريحاني .
هذه أقوال جادت بها قرائح كبار الأدباء والمستشرقين تبين لنا المنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها مفكرنا الكبير أمين الريحاني .

(١) « المغرب الأقصى » رحلة في منطقة الحماية الإسبانية . دار المعارف بمصر ص ٦٦٤ .

٦- منزله

لم يكن احترامه ومنزله الرفيعة مقتصرين على بني قومه؛ بل كانا متجاوبين في الأقطار العربيّة والأميريّة، وقد قرأنا أقوال الأدباء فيه، وما كان يتمتع به من شهرة واسعة، يحتنى به أينما حلّ وحيثما توجه.

وهذا ما دعا الحكومة اللبنانية إلى وضع رسمه في دار الكتب الكبرى تخليداً لذكوره واعترافاً بأدبه.

ولقد أخبرني ابن الثقة أن بعض الأقطار العربيّة الشقيقة، قد أطلقت اسمه على بعض شوارعها، وقال: إن مدرسة شيّدت في حماه وأطلق عليها اسمه، كما دعى جناح باسمه في مدرسة محرّدة - سوريا - وبني شقيقه يوسف مدرسة في بلدته «الفريكة» باسم أمين الريحاني.

٧- الأوسمة

- ١- منح وسام المعارف الأوّل الإيراني.
- ٢- وسام المعارف الأوّل للمغرب الإسباني.
- ٣- الاستحقاق اللبناني الأوّل المذهب^(١).

ولم تقتصر خلمته على لبنان حسب بل تناولت خلمته الأدبيّة الأقطار العربيّة كلها، فلا عجب أن كانت له منزلة رفيعة مرموقة بين قومه وأقرانه وأحبّائه ولا سيبا العرب ومن يمتُّ إلى العرب بصلة.

(١) عن سجل المتحف الذي أنشأه له أخوه لأديب المعروف أبرت ريحاني في بلدة الفريكة.